حياة المرأة المسلمة

العدد : ١٩١ الموافق في صفر ١٤١٨ هجري ٧ / ١٩٩٧ ميلادي

عنوان المقال : أزمة المرأة المسلمة فرع من أزمة الأمة	بقلم : د. صلاح الدين النكدلي

ينطلق الفكر الإسلامي التجديدي المعاصر من قول رسول الله ﷺ : « **النساء شقائق الرجال** » فهما نوعان لجنس واحد ، لهما خصائص مشتركة ومهمات مختلفة ، ويستدل المفكرون على هذه الحقائق بنصوص قرآنية ونبوية كثيرة ، نستأنس هنا بقول الله عز وجل في أوائل سورة الليل : { **والليل إذا يغشى ❋ والنهار إذا تجلى ❋ وما خلق الذكر والأنثى ❋ إن سعيكم لشتى**...} فكما أن الليل والنهار نوعان لجنس واحد هو " الزمن " ولكل واحد منهما مهمة يؤديها : { **هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون** }[يونس:٦٧] . فكذلك « الذكر والأنثى » لكلٍّ منهما مهام مع كونهما من جنس واحد هو الإنسان : { **إن سعيكم لشتى** }.

وفي ضوء هذه الحقيقة البدهية فهم المفكرون الإسلاميون نهيَ الله تعالى للمؤمنين والمؤمنات أن يتمنى كل نوع مهمة ودور النوع الآخر : { **ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضَكم على بعض للرجال نصيبٌ مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن...** }[النساء:٣٢] . وكذلك نهيَ النبي ﷺ عن تشبه الرجال بالنساء ، وتشبه النساء بالرجال.

وأبرز أهل الفكر من المسلمين أن ظروفاً استثنائية شاذة قد تدفع أحد شقي المجتمع - الرجل والمرأة - إلى القيام بمهام لا تنسجم مع طبيعته ، فإذا وقع ذلك كان لزاماً على النساء والرجال أن يعملوا على تصحيح الأوضاع وإعادة الأمور إلى نصابها ، ولنتأمل كيف يعرض القرآن الكريم هذه الحقيقة ، فنحن نقرأ في سورة القصص [٢٣-٢٦] : { **ولما ورد ماءَ مدين وجد عليه أمةً من الناس يسقون ووجد من دونهمُ امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يُصدرَ الرِّعاءُ وأبونا شيخ كبير** } فالحاجة اضطرتهما إلى عمل ليس من اختصاصهما ، ولكنهما لم تذهبا إلى أكثر من حدود الضرورة { **قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء** } معللتين سبب خروجهما إلى ماء مدين مع الرجال بقولهما : { **وأبونا شيخ كبير** }.

ثم يأتي سياق القصة ليبين موقف المجتمع المسلم ، ممثلاً في تلك الواقعة في شخص موسى عليه السلام : { **فسقى لهما** } فالمسلم - رجلاً كان أو امرأة - لا يقف مكتوف اليدين أمام الممارسات الشاذة ، بل يسعى في الإصلاح في حدود الوسع والطاقة.

ونتابع تفاصيل القصة فنرى أن المرأة المسلمة تسعى من جانبها إلى حل مشكلاتها التي تخرجها

عن مهمتها : { **قالت إحداهما يا أبتِ استأجرْه إن خيرَ من استأجرت القويُّ الأمين** }.

لقد ذكرت الحقائق السابقة لأبين بأن الفكر الإسلامي المعاصر متفق على نظرة شرعية واعية لدور الرجال والنساء في مجتمع خيِّر فاضل ، وما نراه في محيط التيار الإسلامي من خلاف ، فإنه محصور في الصور العملية لدور الرجل والمرأة ، وينبغي أن نتلمس أسباب هذا الخلاف ، وأن نحسن التعامل معها ، أما الأسباب التي تقف وراء الخلاف فيمكننا إيجازها في الآتي :

أولاً : **المعلومات السابقة :** فإذا اختلف الناس في كمية المعلومات ونوعيتها ، فإن أحكامهم ومواقفهم تتأثر فتتنوع أو تختلف. فإذا نظرنا إلى ثقافة المسلمين المعاصرين ، فإننا نميز ثلاث تيارات معرفية أساسية :

١- **تيار يغلب عليه التأثر بتراث الأجيال السابقة** ، وبخاصة التراث الفقهي ، فهؤلاء ينظرون إلى الواقع - الذي اختلفت صورته ومكوناته عن واقع القرون المنصرمة - بعيون رجال الفكر السابقين ، فيوقعهم هذا المسلك في إشكالات وهم لا يشعرون !

٢- **وتيار يغلب عليه ثقافة العصر ، وعنده حظ من الثقافة الإسلامية** ، فهؤلاء يحكمون على الواقع ويقترحون صوراً للحياة متأثرين بمقررات الثقافة الغربية ، وهذا يوقعهم في ورطات ويظنون أنهم محسنون !

٣- **وهناك تيار يعمل على امتلاك قدرة اجتهادية تؤهله للتعامل المباشر مع القرآن والسنة ،** وهؤلاء يزدادون قوة وانتشاراً يوماً بعد يوم ، ويقومون بدور طيب في حل الإشكالات والورطات.

ثانياً : **الواقع :** وواقع المسلمين اليوم تفعل فيه مؤثرات داخلية وأخرى خارجية ، وهو في حالة تحول مستمر ، والناس في معرفة الواقع وإدراك متغيراته متفاوتون ، وهذا التفاوت يلقي بظلاله على النتائج.

ثالثاً : **القدرة على الربط بين المعلومات السابقة وبين المعرفة بالواقع :** ولا يخفى أن الناس يتباينون في قدرتهم على الربط بين أجزاء المعرفة ، وهذا يؤثر على أحكامهم.

❋ ❋ ❋

نستنتج مما ذكرنا أموراً :

١- لقد نهضت الحركة الإسلامية التجديدية بدور عظيم الأثر فيما يخص المرأة المسلمة ؛ فصاغت المبادئ والتوجيهات الجامعة التي تحدد دور المرأة المسلمة ، وحركت المعلومات الشرعية ، وساهمت في تنقية المفاهيم والمراجع من رواسب عصور الانحطاط والتخلف ، وتصدت لسهام الهجمة الغربية الرامية إلى إفساد المرأة ، وبذلت جهوداً مشكورة في صياغة اجتهادات توجه الساحة الإسلامية النسائية إلى مهمات وأعمال تناسب الفطرة ، واستنهضت همم الرجال والنساء إلى تحويل الشعارات الجميلة إلى سلوك عملي.

٢- ويمكننا أن نرد الخلاف الناشب في الساحة الإسلامية حول دور المرأة المسلمة إلى : نوعية وكمية المعلومات ، وإلى المعرفة بالواقع ، وإلى القدرة على الفهم والاستنباط. وهذا يعني أن أزمة المرأة المسلمة إنما هي فرع من أزمة الأمة في هذه المرحلة التاريخية ، وأنه بمقدار ما يحقق تيار التجديد الإسلامي من مكاسب تسهم في حل مشكلات الأمة ، فإن أزمة المرأة المسلمة ستحظى بنصيبها من الحلول.

٣- ولا يخفى أن في عقل معظم الرجال في العالم الإسلامي موقفاً سلبياً من المرأة ، وقد أثر في تكوينه :

❋ الفهم الجزئي المبتور لنصوص الإسلام.

❋ ونظرة البيئة الجاهلة إلى المرأة.

❋ والتصرفات التي تصدر عن المرأة بفعل رواسب التربية السيئة الموروثة عن أجيال الجهل والتخلف ، أو بتأثير الغزو الثقافي الغربي الماكر.

وفي عقل معظم النساء المعاصرات في العالم الإسلامي موقف غير إيجابي من الرجل أيضاً ، وقد عمل على تكوينه :

❋ ممارسة الرجال الخاطئة لفكرة « القوامة » التي شرعها الله عز وجل رحمة بالأسرة.

❋ الرغبة غير العاقلة - من قبل بعض النساء - في تحسين أوضاع المرأة ، بحيث أصبحت الدعوة إلى إعادة النظر في دور المرأة داخل المجتمع ملازمة لفكرة الخروج عن تعاليم الإسلام ، والسير في أخلاقيات المرأة الغربية.

وهذا يعني : أن العلاقة بين شطري المجتمع - الرجل والمرأة - في أمس الحاجة إلى الرعاية

المناسبة ، التي تقوم على أساس أن الرجال والنساء يعانون من آثار تربية غريبة عن الإسلام ، وأنه لا يصح أن يسيء طرف الظن بالآخر ، أو أن يتخذ منه موقفاً متشنجاً بسبب أخطائه ، بل عليهما أن يعملا معاً على التخلص من آثار التربية الفاسدة ، لكي يبصر كل منهما حقوقه وواجباته ومهماته التي تحقق للرجل والمرأة وجودهما الإنساني الكريم.

٤- وعلى الرغم من كل معوقات البيئة والعصر ، فإن المرأة المسلمة قد حققت انتصارات لا يستهان بها في مجال الفكر والممارسة ، وأصبحنا نرى على امتداد الأرض نساء مسلمات ملتزمات ينهضن بواجبات علمية وفكرية وتربوية ومهنية ، ويشاركن الرجال في عدد من ميادين الحياة العامة ، بصرف النظر عن صور المشاركة.

لذلك فإنني أتحفظ كثيراً على إطلاق القول بأن المرأة المسلمة تكاد تكون غائبة عن ميادين الفكر والفن والثقافة ، وأتحفظ أيضاً على تحميل « الرجل » القسط الأكبر من المسؤولية عن سلبيات نراها في دائرة المرأة المسلمة ، فهناك سلبيات ترجع إلى المرأة نفسها ، وأخرى تفرزها البيئة الاجتماعية والسياسية.

وهنا أنبه إلى أمرين :

الأول : ينبغي أن تكون أحكامنا معتمدة على دراسات تستوعب كل المؤثرات ، وأن نتجنب الأحكام القائمة على انطباعات توحي بها حوادث معزولة.

الثاني : ويجب أن يسود الاحترام لوجهات النظر الفقهية الاجتهادية فيما يتعلق بدور الرجل والمرأة والعلاقة بينهما. والاحترام لا يلغي حق العالم في تخطئة الآخرين ومناقشة حججهم ، وإنما نقصد : أن يبتعد المسلم والمسلمة عن أساليب تسفيه الرأي الاجتهادي ، وفرق كبير بين التخطئة والتسفيه.

٥- إن أمتنا ما تزال في حاجة ماسة إلى استمرار وتعميق عملية التجديد ، وإلى النهوض بالاجتهاد ؛ ففي طريق التجديد تزيل العقبات من العقول والنفوس ، وعن طريق الاجتهاد تبتكر صوراً شرعية تناسب حياة المسلمين ؛ تحقق بها المصالح وتدرأ المفاسد.

وينبغي أن يتقدم أهل العلم قافلة دعاة التجديد والاجتهاد حتى لايضل الناس الطريق وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً ، ويجب أن يحتاط المسلم ، رجلاً وامرأة ، في أخذ العلم والاجتهاد ، فلا يأخذ علمه إلا عمن يصح أن يؤخذ عنه.

٦- على المرأة المسلمة أن تنمي مبادراتها الذاتية للنهوض بالساحة النسائية ، وعليها أن تتمتع بهمة علية تمكنها من السعي الحثيث إلى التكوين الأفضل باستمرار ، وتمنحها القدرة على تخطي العقبات التي تفرزها البيئة الاجتماعية والسياسية.

❋ ❋ ❋

وأخيراً أقول : إن وجود شُقة بين الشعارات الجميلة والواقع الحالي ينبغي ألا يفت في عضد المسلمة ، ولا يجوز أن تدفعها الرغبة في النهوض إلى الخروج عن حدود الفطرة والشرع ، وأدعو التيار الإسلامي إلى مراجعة هادئة لاختياراته في مجال العمل النسائي ، فقد تراكمت معارف وتجارب تستدعي قراءة جديدة للساحة النسائية... وعسى أن يكون ذلك قريباً.